اللغة والأسلوب في شعر (عرار)

للدكتور محمود السمرة
(نائب رئيس مجمع اللغة العربية الأردني)

قبل ثلاثين عاماً توفي مصطفى وهبي التل، وقبل خمسة وعشرين عاماً صدرت الطبعة الأولى من ديوانه "عشيات وادي اليابس" في عمان.

ورغم أن عراراً مشهور معروف في الأردن، وهو شاعر الأردن دون منازع: يحفظ شعره المثقفون، ويردده حتى من نالوا حظاً قليلاً من الثقافة، إلا أنه لا يكاد يعرفه أحد خارج الأردن.

لماذا؟

لعلّ من أسباب ذلك أن ديوانه الأول صدر في وقت كانت فيه إمكانيات الطباعة في الأردن محدودة جداً: فالحروف صغيرة، والأخطاء كثيرة، والورق رديء، والتوزيع معدوم.

ثم: إن شعر عرار مَحَلّي، مغرق في محلّيته: محلّي في موضوعاته، وإشاراته، وكثير من تعبيراته. وما لم يتمثل القارئ هذه كلها تمثلاً واضحاً، فإن تجاوبه مع هذا الشعر يبقى محدوداً. وقد بذل المرحوم الأستاذ محمود المطلق جهداً طيباً في شرح ما يحتاج إلى شرح، لتقريب هذا الشعر إلى أذواق القراء العرب. وأذكر أنه ما من مرة تذاكرت شعر عرار مع أخوة عرب، وقدّمت لهذا الشعر بما يُعِين على إدراكه وتمثّله، إلا وجدت عندهم استجابة له، ودهشة لأن مثل هذا الشاعر غير معروف عندهم.

ثم: هناك لوم يقع على أدباء الأردن: فهم لم يعنوا أنفسهم بالتعريف بالشاعر وتقديم الدراسات عنه، إلا في نطاق محدود.

* * *

لكلّ هذا وجدتُ أن الحاجة أصبحت ملحّة لإصدار طبعة ثانية من الديوان، وخاصة عندما وُضعت بين يدي أوراق الشاعر، فوجدتُ فيها شعراً يستحق أن ينشر، ولم ينشر.

وهكذا، في سنة ١٩٧٣ صدر ديوان "عشيات وادي اليابس" في طبعة جديدة فريدة، تعكس تقدم فن الطباعة في الأردن الحديث، وتضع بين أيدي القراء شعر الشاعر الأول في الأردن في شكل يليق بجمال هذا الشعر؛ وقد زينته رسومات الفنان الموهوب مُهَنّا الدرة، آملين من ذلك أن نستطيع إيصال الديوان إلى أيدي محبي الشعر الجيد، لا في الأردن فحسب، بل في أكثر عدد ممكن من البلاد العربية الشقيقة.

ولكن ما أردناه لم يتحقق، لسبب بسيط هو افتقارنا إلى مؤسسة، أو شركة، لتوزيع الكتاب الأردني وتسويقه. وبقيت هذه الطبعة يسعى إلى الحصول على نسخة منها، ويجدّ في السعي، من يجد الرغبة في ذلك.

وفي رأيي أنه ما زالت هناك حاجة الى إصدار طبعة جديدة من الديوان، يقوم المحقق فيها بإيراد الروايات المختلفة للأبيات، وترتيبها في القصائد؛ فقد خلصتُ من اطلاعي على أوراق الشاعر إلى أن الصورة التي بين أيدينا للقصائد والأبيات ليست إلا صورة واحدة من صور عدة: ففي كثير من القصائد نجد ترتيب الأبيات مختلفاً، والتغيير في ألفاظ الأبيات كثيراً. ويحضرني هنا التحقيق الأمثل الذي قام به المستشرق Ritter لكتاب "أسرار البلاغة" للإمام عبدالقاهر الجرجاني، وتحقيق الأستاذ الدكتور ناصر الدين الأسد لديوان قيس بن الخطيم، وتحقيق الأستاذ الدكتور إحسان عباس لديوان لبيد. على هذه الصورة نريده. وقد شغلتني شواغل كثيرة عن النهوض بهذا العمل الذي يستغرق وقتاً طويلاً.

* * *

وفي رأيي أن أوراق الشاعر التي بين أيدينا، تغري الناقد أيضاً بالقيام بدراسة نقدية نفسية: تدرس حياته، وظروفه، ومجتمعه، باستقصاء. ثم تنظر في زمن نظمه لكل قصيدة، والأسباب النفسية التي دعته لهذا التقديم، وذاك التأخير، وشطب هذه الكلمة أو تلك، ولماذا استبدل بها غيرها. إن قام بهذه الدراسة ناقد بارع موهوب، فربما حصلنا على دراسة نقدية ممتعة، على غرار الدراسة التي وضعها John Middleton Murray عن الشاعر Keats بعد أن حصل على أصول قصائد الشاعر بخط يده.

* * *

وبعد، فإن لي على شعر عرار الملاحظات التالية:

١- شعر عرار بسيط في مضمونه وشكله، يقترب كثيراً من كلام الناس الذين هو منهم: عاش بينهم، يشاركهم أفراحهم، وأحلامهم، وآمالهم، ويأسى لأحزانهم، وتدميه آلامهم؛ ومع هذا فلشعره فعل السحر في نفوسهم.

لماذا؟

في رأيي أن السر في قوّة تأثير شعر عرار في النفوس أنه شعر يعبّر عن تجربة محلية وإنسانية، معاً ... تجربة عميقة، فيها قدر طاغٍ من حدة الإحساس. وهو يعبّر عن هذه التجربة بألفاظ مشحونة بهذا الإحساس. وحالة الانفعال الحاد، حالة تميّز الشعر الجيد عن غيره من الفنون الأدبية الأخرى؛ وهي حالة تصاحب الشاعر في أثناء عملية الإبداع الفني؛ ذلك لأن الشاعر الحق إنسان يتمتع بحساسية غير عادية، تجعله يتعاطف مع أحداث الحياة الإنسانية بدرجة عالية.

واللغة التي يستعملها عرار، رغم محليتها ... ورغم بعض الأخطاء اللغوية والعروضية، حافلة بالحياة، تفتح عيوننا على عيوب في المجتمع، قد نمرّ بها دون أن نحسّ بها، وإذا أحسسنا بها، فقد يكون هذا إحساساً عابراً. ولكنها في هذا الشعر دفقات قوية، تنبه العقل، والنفس، والأعصاب.

ومن الخطأ أن نعتبر شعر عرار وثيقة تاريخية ترسم بدقة ما كان يسود شرق الأردن زمنه؛ ذلك لأننا نعرف أن الشعر ذاتي، والشعراء يعبّرون عن أحاسيسهم، وانفعالاتهم الخاصة. ونحن في بحوثنا لا نعتمد شعر الشعراء وثائق نستشهد بها، وإن كنا نستعين بها في حدود ضيقة. وهذا لا يضير الشعر ولا الشاعر: فالصدق الفني هو غاية الشاعر، أما البحث عن الحقيقة فغاية العالِم.

إن الشاعر لا يعرض لنا الحقائق عرضاً موضوعياً كما توجد في الواقع، بل يحوّرها بفضل ملكة الخيال التي وُهِبَها، ويكوّن منها كُلّاً فنياً موحَّداً. ومنذ أن كان في الدنيا شعر، كان قدر الشاعر أن يرى ويرصد المظاهر المختلفة لهذا الكلّ المعقد الذي نسميه الحياة الإنسانية، ثم يعبّر عن وقع هذا الوجود على وجدانه بصدق وجمال.

وسواء أقُلْنا بعد قراءة الشعر إننا نوافق الكاتب في رأيه، أم لا نوافقه، لأن الحياة في واقعها ليست كما يراها، فهذا ليس هو المهم، وإنما المهم أن قراءتنا لهذا الشعر تجعلنا ننظر إلى الحياة من زوايا جديدة، وتضيف إلى تجربتنا في الحياة تجارب جديدة، قد تكون أعمق وأنضج، حتى أننا لنحس، عندما نطوي آخر صفحة، أننا ازددنا معرفة بالحياة والإنسان.

وأنت في شعر عرار تدخل دائرة التأثير، وتبقى فيها إلى أن تصل إلى نهاية القصيدة؛ ذلك لأن شعره يخلو من سقطات بعض الشعراء الكبار، الذين يجمعون أحيانا بين الرائع والرديء في القصيدة الواحدة، ويجمعون بين صورتين متنافرتين في بيتين متتاليين.

وإذا كنا قد بدأنا القول بأن من صفات شعر عرار أنه شعر مَحَلّي، بالمفهوم الذي حدّدناه، فما موقف الجماليين، والنقاد الجدد (The New Critics)، الذين يسيطرون على دنيا الأدب في أيامنا هذه في الغرب، من مثل هذا الشعر؟ إنهم يرون أن القصيدة الجيدة مكتفية بذاتها، لا نحتاج للكشف عن أسرار الجمال فيها إلى أن

نعرف مناسبتها وظروفها، ولا حتى من نظمها. وفي رأيي أن هذا القول صحيح، ولكن في حدود. وأنا لست من المؤمنين إيماناً مطلقاً بما يقولون، ومن المؤمنين بالمنهج التكاملي الذي يرى الاستفادة من كل النظريات النقدية، لأنها متكاملة، غير متناقضة. والاختلاف بينها هو اختلاف في زاوية الرؤية.

٢- شعر عرار شعر ملتزم.

وقد كان عرار شاعراً ملتزماً، بكل ما في هذا المصطلح من دلالة وأبعاد. وكانت مواقفه واضحة جريئة: فقد وقف إلى جانب الفقراء، والمعوزين، وهاجم المستغلّين، ودعا إلى المساواة، ونادى بالعدالة.

وهذا موقف سيبقي عراراً مذكوراً دوماً كشاعر صاحب رسالة، أجاد التعبير عنها في شعره.

وهذا يجعلنا نقف أمام قضية مهمة في الفن: فنحن كلما تناقشنا في الفن عامة، وفي الشعر خاصة (وسأقصر حديثي هنا على الشعر)، تساءلنا: ما غاية الشعر؟

يرى البعض أن غاية الشعر هي المتعة، وأن القصيدة الجيدة هي التي تولد أكبر قدر منها. وفي رأيي أن المتعة نتيجة، لا غاية، وأن غاية الشعر عرض التجربة الإنسانية عرضاً يُرَسّخ في نفوسنا قيماً ومواقف، وإذا كانت غاية العلم تفسير الوجود، فإن غاية الفن تقييم الوجود. وهذا ما فعله عرار في شعره.

وهذا ما عناه كولردج في كتابه القيم "سيرة أدبية"

Biographia Literaria

عندما قال: إن الشعر ليس مجرد انفعالات وأحاسيس، فأرخص أنواع الأدب قادر على إثارتها. إنه رؤيا، وكشف عن أسرار الوجود.

* * *

ورغم التزام عرار العميق الحاد، فإنه كان في الوقت نفسه رومانسياً، مغرقاً في رومانسيته. وإذا كان الرومانسيون الغربيون قد عبّروا بشعر حافل بالعاطفة المشبوبة عن ثورتهم، وهربوا إلى الطبيعة والحياة البسيطة، عندما أدركوا عجزهم عن التغيير، فقد فعل عرار مثلهم: هرب إلى مضارب النَوَر، وإلى حياة الريف، حيث البساطة، وراحة البال، والمساواة التامة:

الكل زُطٌّ: مساواةٌ محقَّقَة تنفي الفوارق بين الجار والجارِ.

* * *

٣- شعر عرار شعر للرمز فيه دور كبير.

والحديث عن الرمز في شعر عرار حديث قد يطول؛ ولهذا سأقصر حديثي عن الرمز عنده على ثلاثة جوانب بارزة:

أولها: شخصية الهبر: وهي شخصية حقيقية، ورمزية، في آن واحد.

وقد وصف المرحوم الأستاذ يعقوب العودات الهبر، فقال:

"شخصية نَوَريّة، دميمة الخَلْق، مستقبَحة القوام، اختارها عرار لزراية شكلها، وحقارة شأنها، هدفاً لسهام نقده، ومخاطبتها عندما يحلو له خطاب ذوي الشأن، واستفزازهم". (عرار شاعر الأردن، ص١٣٨).

ويقول المرحول الأستاذ محمود المطلق:

"رأى عرار في هذه الشخصية أنموذجاً كاملاً لشخصية النَوَريّ، ومثالاً معبّراً عن كل ما في النَوَر من خير وشر، وسمو وانحطاط. ولهذا فقد اتخذ منه رمزاً للنَوَر، وأداةً أدبية يستعين بها على التعبير عن آرائه ومقاصده". (المقدمة، ص٢٣).

وتقول الشاعرة سلمى الخضراء الجيوسي:

"لعل عراراً كان أول شاعر عربي حديثٍ اخترع نماذج عليا في الشعر، وجعلها رموزاً لقضايا حيوية. جعل من الهبر رمزاً للإنسان البسيط المنبوذ المضطهد". (مجلة عالم الفكر، العدد الثاني).

وحقيقةُ الأمر أن الهبر في شعر عرار رمز لأكثر من هذا:

إنه رمز لما يتعاطف معه عندما يرى فيه الإنسان البسيط، المنبوذ، المضطهد، والإنسان المشرد الضائع.

وهو رمز لما يثير السخرية عندما يرى فيه الإنسان الذي فَقَد كل إحساس بالكرامة.

* * *

ويبدو الرمز عند عرار، ثانياً، في شخصية الشيخ عبّود النجار. وهي شخصية تُناقِض الشخصية الأولى تماماً: فهي رمز لفئة متزمتة منتفعة: فِقْهُها: "في الجنة الخلودُ"، ومبدأها أنها: "حِصَّةُ مَن في جيبه نقودُ".

وسخريته منها، ورفضه لها، لأنها بسلوكها تساهم في إبقاء الشعب على حاله من الجهل والتخلّف.

* * *

ويبدو الرمز عند عرار، ثالثاً، في كل امرأة تغزَّل بها، وكلّ قرية ذكرها، وكلّ وادٍ تَغَنّى به. إنها كلها رموز لهذا الوطن، الذي أَحَبَّ كلَّ من فيه، وما فيه.

٤- شعر عرار شعر عمودي، منظوم على أوزان الخليل، ما عدا قصيدتين هما:

"متى؟" و" يا حلوة النظرة".

ومن الخطأ الشائع ما نردده من أن كل قصيدة نظمت على وزن من أوزان الخليل فهي قصيدة عمودية، مع أن الوزن (أو البحر) ليس سوى شرط واحد من سبعة شروط حَدَّدها النقّاد العرب القدامى، وجعلوها المبادئ التي يجب أن يقتفيها الشعراء.

وكان المرزوقيّ خير من حدّد مفهوم عمود الشعر، وذلك في مقدمته لشرح ديوان الحماسة، في قوله: "إنهم (القدماء) كانوا يحاولون: شرف المعنى وصحته، وجزالة اللفظ واستقامته، والإصابة في الوصف، والمقاربة في التشبيه، والتحام أجزاء النظم والتئامها على تخيّر من لذيذ الوزن، ومناسبة المستعار منه للمستعار له، ومشاكلة اللفظ للمعنى وشدة اقتضائهما للقافية حتى لا منافرة بينهما. فهذه سبعة أبواب هي عمود الشعر، ولكل باب منها عيار (أي مقياس)". وجاء ابن طباطبا فكتب كتابه المعروف "عيار الشعر".

وشِعر عرار عموديّ بهذا المفهوم للشعر العمودي الجيد.

ولو تأملنا في هذا التعريف لوجدنا كثيراً من الشعر الذي يُعْرَف بأنه عمودي، ليس عمودياً.

* * *

هذه ملاحظات نقدية عامة على شعر عرار، لعلها تصلح مخططاً لدراسة موسعة.

ويبقى عرار، بعد هذا، شاعراً لم ينل من عناية الدارسين ما يستحقه.

وما زال مجال القول فيه واسعاً.

الدكتور محمود السمرة